١٠ – لا جديد تحت الشمس

فاضت الصفحات الأدبية فى الصحف اليومية وفى المجلات الشهرية بسيل من الاتهامات الجارحة ضد عدد من أعلام الأدب العربى الحديث فى مصر ، وإنما كانت هذه الاتهامات جارحة لأنها تشكك فى شرعية – وربما تنكر – بعض الأعمال الأدبية لهؤلاء الأعلام . بنسبتها أو بادعاء نسبتها إلى جنود مجهولين أو كانوا مجهولين إلى أن جاء هذا الفيض العكر فخلعهم من منابتهم وألقى بهم عند المصب حيث العطاء الخصب لمن حاولت الصحف والمجلات تشويههم وسحب بساط الأدب من تحتهم .

ولو لم تكن هذه الاتهامات عشوائية تصيب الكتاب والشعراء على حد سواء لقلنا إنها ميلاد جديد لتلك الفكرة القديمة عن شياطين الشعر ، تطويرًا لها وانتقالاً بها من عالم الجن إلى عالم الإنس ، ومن دنيا الخيال إلى دنيا الواقع .

أما وقد شملت الاتهامات الجارحة كاتبين كبيرين هما :

الكاتب القصصى محمود تيمور ، وقرينه هو المجمعى الألمعى شوقى أمين والدكتور محمد حسين هيكل ، وقرينه هو الدكتور سيد نوفل وشاعرين عملاقين هما :

أمير الشعراء أحمد شوقى ، وشيطانه هو الدكتور سعيد عبده ، وعزيز أباظه وشيطانه هو الشاعر أحمد محرم فترة ، والشاعر أحمد مخيمر فترة .

نقول : أما وقد شملت الاتهامات الجارحة كاتبين وشاعرين فإنه لا يسعنا هنا إلا أن نباعد بينها وبين فكرة شياطين الشعراء وأن نضعها فى مكانها الصحيح من تاريخ الأدب أو من قضايا النقد . وإلى أن يتم ذلك نقرر أن هذا النوع من الشك أو التشكيك قد عرف قديمًا وبالصورة التى هو عليها الآن .

ولاشتغالى بالأدب وبالنقد الأدبى فى المغرب العربى ، أقف منه عند اتهامين من هذه الاتهامات التى تنهال اليوم على أدباء مصر .

الاتهام الأول : خاص بالأمير الشاعر أبى الربيع سليمان بن عبدالله بن عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين (ت سنة ٦٠٤هـ) .

ففى كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، وعلى وجه التحديد فى ختام الحديث عن محمد بن عبد ربه حفيد صاحب العقد نجد أن عبد الواحد المراكشى مؤلف الكتاب يتهم أبا الربيع بأنه ليس صاحب الشعر المنسوب إليه وإنما هو لكاتبه محمد بن عبد ربه السابق الذكر ، وأبو الربيع كما عرفنا به جامع ديوانه محمد بن عبد الحق الغسانى هو « من حلى بمحاسنه عاطل الدهر ، وفخر بجميل مناقبه وكريم ضرائبه لسان الزمان والعصر ، الذى أحيا من العلوم ما كان مواتًا ونشر منها ما أعاده الإهمال رفاتًا السيد الأجل الأكمل الهمام الأسنى الأفضل .. »

وكما قال عنه الأستاذ العالم الأديب عبد الله كنون فى كتابه القيم « النبوغ المغربى فى الأدب العربى ج ١ ص ١٨٨ » :

صاحب السيف والقلم الأمير أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن الموحدى، كان من الكتاب البلغاء والشعراء المجيدين ، وهو

أديب بنى عبد المؤمن ونابغتهم الفذ ، درج فى بيت الرياسة والملك ، ولم يمنعه ذلك من الاشتغال بالأدب والإكباب على التحصيل فنشأ متأدبًا أريحيا يتعشق المجد ويصبو إلى العلا ، وما لبث أن قدم إلى ولاية بجاية من قبل ابن عمه الخليفة يعقوب المنصور .

ولما ثار بها على بن غانية نقل إلى ولاية سجلماسة .

وكان فى كلتا ولايتيه كعبة القصاد من أدباء البلاد يأتونه عاقدى الآمال على ألطافه وبره ، فيصدرون عنه وكلهم ألسنة مدح وثناء عليه .

من شعره الرقيق قوله آمرًا الطير بنقل ما بينه وبين حبيبه :

يأيها الطير خبر ما للحبيب لدينا
وأنه ليس شيء أحب منه إلينا
واقرأ السلام عليه منا ومنه علينا

ومن شعره الذى يشبه الفلسفة قوله :

الحب دق فلا تدرى حقيقته
فمن يرد فيه لا يقدر على الصدر
وجل عن أن يرى يخفى فمكمنه
فى القلب مثل كمون النار فى الحجر
إن تقدحوا زنده تظهر حرارته
أو تتركوه خفى عن أعين البشر

وإنما قلنا إن هذا الشعر يشبه الفلسفة لأنه يلتقى فيه بقول ابن حزم « الحب دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف ، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة (طوق الحمامة ص ٥) .

وقد تصدى الأستاذ الدكتور عباس الجرارى أستاذ الأدب المغربى والأدب الشعبى بكلية الآداب جامعة محمد الخامس لهذا الاتهام بالتفنيد فى كتابه (الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدى ، حياته وشعره) الصفحات من ١٦٩ إلى ١٧٧ .

والحكم فى هذه القضية وغيرها مما هو من قبيلها يتطلب قدرًا كبيرًا من الدراسة المقارنة نستنبط منه الخصائص الفنية لكل من الشاعرين والمعجم اللغوى والأدبى لكل منهما حتى يمكننا أن ننحاز بالشعر المتنازع عليه إلى أيهما شبها به وقربًا منه .

* * *

والاتهام الثانى : هو الاتهام الموجه إلى الشاعر محمد رشيد باى بن الأمير حسين بن على مؤسس العصر الحسينى الأول بتونس (١١١٧ - ١٣٠٠هـ) وقد عنى والده بتهذيبه وتعليمه وأهّله لولاية العهد .

ولما قتل الأب أشفق الابن على نفسه من سطوة ابن عمه المتغلب على الولاية ففر إلى قسنطينة وأقام بها مدة ثم استنجد بصاحب الجزائر فساعده بالجيوش حتى عاد إلى تونس منتصرًا سنة ١١٦٩هـ .

وقد ملكها حتى مات بها سنة ١١٧٢هـ ١٧٥٩م .

قالوا : كان هذا الأمير ذا خبرة تامة بالأدب وفنونه ، وصاحب ذوق سليم وشعر فائق .

ومن شعره قوله يفخر بعد رجوعه إلى تونس وحكمه لها :

أيشـــبهنا فى العـــالمـــين قبيـــل
ونيـــل علانا ما إليـــه ســـبيل

أرى العز لايأوى سوى بيت مجدنا
ولا فى حمـــانا يســـتذل ذليـــل

وأعراضنـــا بين الأنـــام جواهـــر
وجوهرنـــا فى الخـافقـين يســـيل

إذا استقبل الأعـداء صارم ســـيفنا
فماضيـــه بالنصر العزيـز كفيـــل

وإن نحن ســـرنـا فى كماة جيوشـنا
وللخيـــل وقـع فى الثرى وصهيل

تكاد جبال الأرض من عظم بأسـنا
تـذوب على سطح الثرى وتميـــل

دع الجبن والإحجام فى طلب العلا
فللموت وقت ليس عنـــك يحـــول

فما العـــار فيمن مـــات للعز طالبا
وليس حيـــاة بالحـــذار تطـــول

لكل خليل فى الورى رأى خلـــه
وليس لنا غير الحســـام خليـــل

وله فى وصف الربيع :

قدم الربيع ووجهه يتهلل ... والظل يلثم خده ويقبل
فتدفقت أنهاره وتفتقت ... أزهاره والدوح خود ترفل
بقلائد موشية بزبرجد ... تيجانها بيد الرذاذ تكلل
والرعد يضرب بالطبول وبرقها ... كالشمع تطفيه الرياح فيشعل
والورد يضحك من بكاء غمامة ... والغصن يرقص والهزار يولول
والزهر بين الروض كاسات يطو ... ف بها النسيم على الغصون فتمثل
فابسط بساط الانبساط على صفا ... وجه الغدير قد استتم المحفل
وانف الهموم على حشاك بغادة ... خمرية ودع العذول يحوقل

هذا عن الشاعر المتهم محمد رشيد باى .

والبطل المزعوم فى قصته هو الشيخ محمد الشافعى بن القاضى الشريف كان ألمعيًا ذكيًا قوى الباع فى النثر والنظم ، شرح قصيدة الأمير محمد الرشيد باى الميمية المسماة (محركات الساكن) شرحًا أدبيًا ضافيًا . مات بعد سنة ١١٨٠هـ .

يقول العالم الجليل الأستاذ المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب :

« وبعض المعتنين بالأدب يدعى أن الشعر المنسوب إلى محمد الرشيد باى إنما هو من وضع الشيخ الشافعى والله اعلم بحقيقة الأمر » (مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٢٤٥) .

ونقول هنا ما قلناه ثمة من أن المسألة ليست بهذه البساطة ، وإنما هى محتاجة إلى دراسة أدبية جادة توصلنا إلى الحقيقة أوقريبًا منها على الأقل .

ونلاحظ أن الشاعرين المغربيين المتهمين كانا أميرين حاكمين ويظهر أن الناس قد استكثروا عليهما الجمع بين إمارة الحكم وامارة الشعر .

وفى هذا الشأن يقول الدكتور الجرارى عن صاحبه أبى الربيع :

« يمكن أن يكون الأمير أبو الربيع استعان مرة بكاتبه (محمد بن عبد ربه) على تهذيب شعر له أو إتمام إحدى قصائده ، أو كلفه بالقول أصلاً فى غرض من الأغراض لضيق وقته وعدم مواتاة ملكة النظم له ، فبنى هذا الكاتب أو غيره من الحبة قبة وروج بين الناس أن شعر أبى الربيع ليس له ، وإنما هو نحله إياه » (أبو الربيع ص١٧١).

* * *

والرأى عندى أن هذا الكلام من الدكتور الجرارى ليس دفعًا للاتهام الموجه إلى أبى الربيع وإنما هو تكريس لهذا الاتهام وتقوية له.

* * *

ألا ما أشبه الليلة بالبارحة ، ولا جديد تحت الشمس.

خاتِمَة

يحسن أن أتوقف عن الاسترسال فى هذه الدراسات لحين اختمار أفكار جديدة فى موضوعات جديدة .

وإذا كنت – فى هذا الكتاب – أقرب إلى النقد الأدبى منى إلى البلاغة، فإن ذلك – فضلاً عن أنه جاء عرضًا لا قصدًا – قد يكون تطبيقًا عمليًا ، وامتثالاً علميًا لما انتهت إليه الدراسة الأولى فيه ، وهو أن النقد الأدبى هو الأصل .

وإن دل هذا على أننا فى أول الطريق .

فإننا على الدرب سائرون .

ومن سار على الدرب وصل .

ومع أن الدرس البلاغى قد جاء تاليًا وثانيًا إلا أننى أعد بأن أفرد البلاغة بدراسة خاصة بها فى محاولة لتيسيرها ، لكن ذلك يقتضينى استحضار كل ما قيل فيها وتمثله [1].

وموضوع العنف النقدى ، يفسر ظروفه التى كتب ونشر فيها ، والحمد لله .

---

(١) تم ذلك بحمد الله بتأليف كتابىَّ « البلاغة الاصطلاحية » وقد طبع ثلاث طبعات: الطبعة الأولى سنة ١٩٨٧. والطبعة الثانية سنة ١٩٩١. والطبعة الثالثة سنة ١٩٩٢. وثلاثتها عن دار الفكر العربى بالقاهرة . و«معجم البلاغة العربية نقد ونقض» وقد صدرت طبعته الأولى عن دار الفكر العربى بالقاهرة سنة١٩٩١م.

ولقد كان له وقع حسن، لأنه قال الكلمة التى كان الجميع ينتظرونها .

ولم أره كافيًا فكتبت (معالم على طريق النقد الأدبى) فيما يشبه وضع الضوء الأحمر على جانبى الطريق حتى لا يخرج الناس عنه .

وجاءت ندوة النقد خيرًا وبركة ؛ فقد انتهت بنا إلى علم جديد هو (النقد الأدبى المقارن) .

أجل. ولم لا ؟ !.

وإذا كان الأدب الإنشائى قد تطور فى الدراسات الأدبية ، وعلى يديها إلى أن ننظر فيه من خلال غيره .

وإلى أن ننظر فيه إلى غيره .

فلم لا يكون الأمر كذلك بالنسبة إلى أرقى أنواع الأدب الوصفى وهو النقد الأدبى ؟ !.

إذا كنا نبحث عن جديد فهذا هو الجديد

وإذا كان من طموح الدراسات الأكاديمية أن تفتش عن المجهول لتغسله بالضوء ، بل لتنقعه فى الضوء .

فهذا هو صيدى الثمين الذى أعود به من رحلتى التى استغرقت عمرى كله .

إننى أبشر بالنقد الأدبى المقارن .

على غرار الأدب المقارن .

بل إنه لأقرب منه إلى الواقعية والمعقولية ؛

فالأدب الإنشائى ذاتى ، والأدب الوصفى موضوعى .

وإذا كانت الذات تفرق ، فإن الموضوع يُجمِّع .

وليذكر الذين سيركبون موجة النقد الأدبى المقارن إلى مصبه ، من دلهم على نبعه .

وعما بين القاضى وعبد القاهر ..

فقد تضمنته الدراسة ، وهى من هذه الناحية كافية .

لكن ثلاثة الكتب الصادرة عن الرجلين وهى (الوساطة) و (الأسرار) و (الدلائل) لا ينهض بها ولا يوفيها بعض حقها إلا الجهود المكثفة .

ولما كان النثر الأدبى فى المملكة العربية السعودية يمثل قضية أدبية نقدية ، وقد جعله أستاذ جامعى كبير موضوع كتاب له .

فقد عرضته ونقدته ؛

ليستفيد القارىء مضمونه .

وليقف المؤلف على رأى زميل له فيما عمله .

والبيئة السعودية غنية بالإنتاجين العلمى والأدبى .

ولم يبق إلا التواصل الفكرى بينها وبين غيرها من بيئات الوطن العربى، وهو تواصل . لا أزعم أن هذه الدراسة تنهض به ولو أنها تمهد له .

ومثل هذا يقال عن (تطور النقد العربى الحديث فى مصر) .

أما النقد الأدبى فى العصر المملوكى ، فهو رد على نقد أخى وصديقى الأستاذ الدكتور محمد زكريا عنانى لكتابى المسمى بهذا الاسم .

وقد صار العملان (النقد والرد) ريشتين فى جناحى الكتاب .

وفى (لا جديد تحت الشمس) تحليل وتعليل لهجمة تترية على أعلام الشعر والقصة فى مصر العربية ، لزحزحتهم – ولو قليلاً – عن مجالهم .

ولما لم يكن ذلك فريدًا ولا جديدًا ، فقد قلت لنفسى ولغيرى : لنطمئن . فما أشبه الليلة بالبارحة . أما بعد :

فبحسبنا أننا فى سعينا نحو الحقيقة تتكشف لنا أشياء يثبت صدقها وإن ظلت الحقائق نفسها بعيدة عنا ، بل وإن ازدادت بعدًا .

ليظل دفع الله للناس قائمًا ولازمًا .

والحمد لله ..

كتب للمؤلف

١ – النقد الأدبى فى العصر المملوكى :
الأنجلو المصرية ط (١) سنة ١٩٧٢م – دار الفكر العربى بالقاهرة ط (٢) سنة ١٩٩١م .

٢ – النقد الأدبى فى المغرب العربى :
الأنجلو المصرية ط (١) سنة ١٩٧٣م – الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٨م ط (٢) .

٣ – القاضى الجرجانى والنقد الأدبى :
الهيئة المصرية العامة للكتاب ط (١) سنة ١٩٧٣م والأنجلو المصرية طبعة ثانية :
(ا) القاضى الجرجانى على بن عبد العزيز سنة ١٩٧٤م .
(ب) النقد الأدبى عند القاضى الجرجانى سنة ١٩٧٦م .
والهيئة المصرية العامة للكتاب طبعة ثالثة سنة ١٩٩١م .

٤ – مقالات فى التربية واللغة والبلاغة والنقد.
الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٤م ط (١) ، ودار الفكر العربى بالقاهرة ط (٢) سنة ١٩٩٢م .

٥ – نقد النقد فى التراث العربى.
الأنجلو المصرية ط(١) سنة ١٩٧٥م – دار المعارف بمصر ط(٢) سنة ١٩٩٣م .

٦ – خط سير الأدب العربى.
الأنجلو المصرية ط (١) سنة ١٩٧٦م – دار الفكر العربى بالقاهرة سنة ١٩٩٠م طبعة ثانية .

٧ – لغويات .
الأنجلو المصرية ط (١) ١٩٧٦م – دار الفكر العربى بالقاهرة طبعة ثانية سنة ١٩٩٠م .

٨ – من التراث الأدبى للمغرب العربى.
عالم الكتب بالقاهرة طبعة أولى ١٩٧٩م .
دار أمية للنشر والتوزيع بالرياض طبعة ثانية ١٩٨٥م .

٩ – دراسات فى النقد الأدبى والبلاغة.
دار العلوم بالرياض طبعة أولى سنة ١٩٨٠م . دار المعارف بالقاهرة طبعة ثانية ١٩٩٣م .

١٠ – أبيات المعانى فى شعر المتنبى.
الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون بالرياض ط (١) ١٩٨٣م . دار الفكر العربى بالقاهرة طبعة ثانية سنة ١٩٩٢م .

١١ – البلاط الأدبى للمعز بن باديس.
جامعة الملك سعود بالرياض طبعة أولى ١٩٨٣م . دار الفكر العربى بالقاهرة طبعة ثانية سنة ١٩٩٢م .

١٢ – المقنع فى أن « هدى كامل الميرد » ليس « الممتع ».
دار الرياض للنشر والتوزيع بالرياض ط (١) ١٩٨٤ .

١٣ – التجربة الشعرية عند ابن المقرب : مضمونها وبناؤها الفنى.
النادى الأدبى بالرياض ط (١) ١٩٨٦ .

١٤ – البلاغة الاصطلاحية.
دار الفكر العربى ط (١) ١٩٨٧ ، ط (٢) ١٩٩١ ، ط (٣) ١٩٩٢ .

١٥ – مساجلات.
الأنجلو المصرية ط (١) سنة ١٩٩٠م .

١٦ – مقالة الأدب المقارن.
دار المعارف بمصر ط (١) سنة ١٩٩١ .

١٧ – معجم البلاغة العربية.
نقد ونقض . دار الفكر العربى بالقاهرة طبعة أولى سنة ١٩٩١.